قوى الثروة

عرض: جون ألترمان

مجلة فورين افيرز

عدد نوفمبر/ديسمبر 2009

Free Markets, Free Muslims

By **Jon B. Alterman**

Foreign Affairs ***Magazine***

ترجمة: علي الحارس

جون ألترمان

- كبير باحثين في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS)؛ حيث يدير فيه برنامج الشرق الأوسط.
- عضو طاقم التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية (سابقا).
- مستشار في مجموعة دراسة العراق (لجنة بيكر-هاميلتون).
- أستاذ دراسات الشرق الأوسط في كلية الدراسات العالمية العليا في جامعة جونز هوبكنز، وفي جامعة واشنطن.
- دكتوراه في التاريخ، جامعة هارفارد.

الكتاب: قوى الثروة... الطبقة الوسطى الجديدة في العالم الإسلامي، وماذا سوف يعني ذلك لعالمنا.

الكاتب: ولي نصر.

عدد الصفحات: 320.

الناشر: سيمون وشوستر.

تاريخ النشر: سبتمبر 2009.

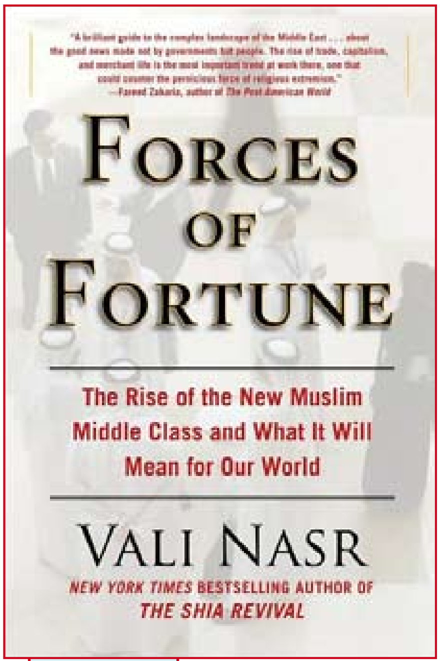

غلاف الكتاب

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

ولي نصر

نبذة عن الكاتب:

- كبير مستشاري ريتشارد هولبروك الممثل الخاص لوزارة الخارجية الأمريكية في أفغانستان وباكستان.
- باحث في مركز مجلس الشؤون الخارجية (CFR).
- أستاذ السياسة العالمية في كلية القانون والديبلوماسية، جامعة تافتس.
- باحث في مركز بيلفر (Belfer) للعلوم والشؤون العالمية (سابقا).
- دكتوراه في العلوم السياسية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT).

لم يمض وقت طويل منذ كانت عبارة «معجزة دبي» على كل لسان. فدون الاستعانة بأي شيء يتجاوز مجرد فكرة كبرى تحول هذا الشريط المشمس قليل السكان من ساحل الخليج العربي بين ليلة وضحاها إلى إحدى أكثر حواضر العالم توهجا. لقد كانت دبي تفيض بالأصول المالية، وتتباهى باحتضانها لأفخر فنادق العالم، وتجذب أكثر من ستة ملايين زائر كل عام، وهذا إنجاز ليس صغيرا إذا علمنا بأن سكان إمارة دبي لا يتجاوز عددهم مئة ألف نسمة. لكن السنة الماضية شهدت انفجار الفقاعة الخيالية التي كانت مسؤولة عن اجتذاب العديد من مصادر نمو دبي: فتوقفت عمليات البناء، وظلت المشاريع الطموحة حبيسة المخططات. أما خلف الكواليس فقد تطلب الأمر عشرات المليارات من الدولارات على هيئة ضمانات مالية من إمارة أبوظبي لحماية المشروع من الغرق بالكامل.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

قوى الثروة

تم تأليف معظم كتاب ولي نصر (قوى الثروة) أثناء حقبة الحماس من قصة دبي، لكنه ظهر إلى الوجود في وقت يشيع فيه قدر أكبر من التعقل. وتجد في الكتاب عرضا للحماس القديم الذي اعتبر أن فكرة «نموذج دبي» (مجتمع رأسمالي متعدد الأعراق معزول عن تأثيرات العنف والايديولوجيا) قد تنقذ الشرق الأوسط من دوامة مهلكة يغذيها التعصب والتشدد السياسي. والحصيلة الكلية التي يخرج بها نصر من كتابه (انتصار مبدأ السوق الحر في الشرق الأوسط «سيمهد الطريق لهزيمة التطرف بشكل حاسم وتحقيق التحرر الاجتماعي») تتعاطف مع تجربة دبي. حيث يحاجج نصر: «إذا فاز في المعركة قادة أعمال القطاع الخاص والطبقة الوسطى المرتبطة بهم، فسيتبع ذلك عندها التقدم ونيل الحقوق السياسية».

لا يتناول الكتاب قصة دبي فحسب، وإنما يناقش الوعد المثابر لدبي، والصراعات في إيران، والنجاح في تركيا؛ وبإسناد هذه المناقشات بدراستين موجزتين لمصر وباكستان يقترح نصر أن الرأسمالية حيثما ازدهرت حملت معها التسامح والاعتدال أيضا. وبعد أن يبت بانحسار أمواج الماركسية، يرى نصر أن التدين الشائع في أوساط الطبقة الوسطى ما هو إلا طريق تسلكه المجتمعات المسلمة لتحقيق الاندماج مع بقية مجتمعات العالم، فيقول: «هذه الطبقة الصاعدة تستهلك الإسلام بمقدار ما تمارسه»، وتسعى إلى تبني الحداثة بالشروط الإسلامية دون رفضها كشكل من أشكال الفساد. أما العقائد الشعبوية القديمة التي ركزت على الحقوق السليبة وشجعت على المقاومة فتعيش حالة متدهورة، ولهذا يحذر نصر من أن تؤدي الموارد التي تبذل لإسناد الأفكار المتحررة في المجتمعات الإسلامية إلى تغذية الحروب بين الثقافات المختلفة، وعوضا عن ذلك فإن «الصراع الجوهري الذي سيمهد الطريق لهزيمة التطرف بشكل حاسم وتحقيق التحرر الاجتماعي سيتمثل في معركة تحرير الأسواق».

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

إما دبي... وإما ليست دبي

من بين النماذج الثلاثة التي حواها الكتاب تجتذب دبي معظم الاهتمام على نحو واضح، فثروتها المدهشة واحتضانها للمهاجرين تبقى مميزة عن المشاعر المعادية للاستعمار والأجانب التي نصادفها في بقية أرجاء الشرق الأوسط. وما تحتويه من بيئة أعمال فعالة ومستوى راق من معايير الحياة يجعل الإمارة قاعدة أكثر جاذبية للهاربين من الغرب بالمقارنة مع أي مكان آخر في الشرق الأوسط. وما يشيع فيها من ثقافة (الممكن) التجارية تجعل منها المكان الذي يقصده حتى رجال الأعمال العرب من أجل التفاوض على الصفقات. كما إن الإيرانيين يتواجدون فيها بكثرة بغرض التجارة والترفيه حتى أن بعض الإحصائيات تشير إلى أن عدد الإيرانيين في دبي يفوق عدد سكانها الأصليين بأربعة أضعاف. لقد أصبحت دبي ملجأ آمنا من المعارك التي تندلع في جميع أرجاء الشرق الأوسط حول المال والسياسة والدين؛ فدبي لا تعبأ بصدام الحضارات، وإنما تهتم بالحداثة والراحة والربح.

ومع كل هذه النجاحات فإن دبي ليست نموذجا مثاليا لما يمكن أن يكون عليه مستقبل الشرق الأوسط. فالسكان الأصليون قليلو العدد حكمت عليهم الضرورة أن يعيشوا كأقلية على أرضهم، والقوة العاملة من هؤلاء السكان يسهل توظيفهم بأجمعهم حيث تكاد مجالات الأمن والجمارك تستوعبهم جميعا. ويأتي في مستوى الأهمية ذاته أن دبي تدين بجانب على الأقل من نجاحها إلى جارتها الغنية أبوظبي، والتي كانت عائدات نفطها ضمانا لحماية دبي من الانهيار. إن نموذج دبي مناسب جدا لدبي، لكنه لا يمكن تطبيقه إلا بشكل محدود في باقي أرجاء الشرق الأوسط.

إيران

أما ظروف إيران فهي أكثر تشابها مع مثيلاتها في معظم دول المنطقة، وتقدم لنا حكاية أكثر تحذيرا بكثير. فبما لها من تاريخ امبريالي، وثروة نفطية وغازية ضخمة، وقرابة 70 مليونا من السكان، تتبوأ إيران مركز قوة طبيعيا في الشرق الأوسط. وبالرغم من ذلك فإن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

قوى الثروة

مؤلف الكتاب يرى أن التركيبة الإيرانية المكونة من الدين والسياسة والاقتصاد، والتي تمتزج فيها «الأصولية الدينية الشيعية مع جرعة كبيرة من الصراع الطبقي وكره الرأسمالية»، قد أدت إلى تدهور البلاد إلى الحضيض. ويشرح المؤلف ذلك بأن القيادة الدينية الإيرانية كثيرا ما استخدمت عزلة إيران عن العالم لإحكام قبضتها الاقتصادية والسياسية على البلاد؛ وفور نجاح ثورة 1979 تعرض القطاع الخاص إلى التأميم أو البيع، وزاد عدد الموظفين الحكوميين إلى ثلاثة أضعاف، وشُلت حركة الاقتصاد بتأثير العقوبات الدولية وحرب دموية مع العراق. وعندما استنفدت الحكومة كافة الخيارات في بدايات تسعينات القرن الماضي، سعى الرئيس رفسنجاني حينها بحذر إلى إعادة الحياة إلى القطاع الخاص، وتسارعت هذه الجهود بعد انتخاب الرئيس خاتمي عام 1997 وبدأ رأس المال الأجنبي بالاستثمار في إيران. وجنبا إلى جنب مع الإصلاح الاقتصادي تحقق انفتاح سياسي تدريجي، فزادت فاعلية منظمات المجتمع المدني، وعادت سلطة القانون، وانطلقت موجة من الجدل العام.

لكن تبين في ما بعد أن القيادة الإيرانية لا تتجمل الواقع الجديد، فقامت بعكس مسيرة جريان الأمور. وهنا يضع المؤلف معظم المسؤولية على كاهل المرشد الأعلى خامنئي الذي دعا قوات الحرس الثوري إلى كبح مسيرة الإصلاح الاجتماعي والمحافظة على التحالف المشبوه بين رجال الدين وزمرة السياسيين الذين أنجبتهم الثورة. وأدى انتخاب الرئيس الشعبوي محمود أحمدي نجاد عام 2005 إلى تعزيز الجهد المضاد للإصلاح وتوجيه ضربة قوية إلى الآمال الطامحة بتحقيق انفتاح اقتصادي أكبر. ولكن «انفتاحا» من نوع آخر حصل بعد ذلك، حيث «انفتحت» خزائن الدولة لتضخ عشرات المليارات من الدولارات على شكل إعانات، ومكافآت نقدية، وحملة بناء مدعومة حكوميا؛ فكان أن ارتاحت لذلك الطبقة الدنيا، وتهدمت أركان الطبقة الوسطى؛ كما تدهورت قيمة العملة وارتفع مستوى التضخم مما أدى إلى إجهاد المتقاعدين والموظفين الحكوميين. لقد كانت العواقب السياسية لما حدث واضحة في يونيو الماضي، حيث اتخذت الحكومة إجراءات صارمة ضد المعارضة لادعائها بأن الحكومة قد سرقت الانتخابات الرئاسية، ويعتقد الكثير من المراقبين المطلعين أن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

قوى الثروة

ما حدث كان انقلابا نفذه خامنئي والحرس الثوري للمحافظة على السلطة بالضد من رغبات عشرات الملايين من الناخبين الإيرانيين. وليس هنالك إلا القليل من الانتباه للمكون الاقتصادي في السلطة الإيرانية وإنشاء ما يدعوه المؤلف «شركة الجمهورية الإسلامية». فما تمارسه الحكومة من احتكار على المستوى السياسي يرافقه جنبا إلى جنب احتكار على المستوى الاقتصادي.

تركيا

يرى المؤلف أن تركيا تمثل توازنا أكثر سعادة بين الدولة والناس، حيث قضى المنهج الذي عمل به كمال أتاترك، مؤسس جمهورية تركيا، بأن تحرك الدولة عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بهيكلية متدرجة من الأعلى إلى الأسفل في منتصف القرن العشرين؛ فخططت الدولة للاقتصاد، وبنت المصانع، ونظمت التجارة، وفرضت أيضا العلمانية الصارمة باعتبارها عنصرا ضروريا من عناصر عملية التحديث. لكن العقود الأخيرة شهدت هيكلية مختلفة تنطلق من الأسفل إلى الأعلى، وسوقا حرة، ومنهجا دينيا نشأ في البلاد بالترابط مع ازدياد ثروات أعضاء حزب العدالة والتنمية. وبطل الحكاية التركية هو تورغوت اوزال رئيس وزراء تركيا في ثمانينيات القرن الماضي، حيث بث الحياة في منطقة الأناضول الحيوية من خلال المساعدة على تكوين شبكات من أصحاب المشاريع الرائدة المتحررين من هيمنة النظام الرأسمالي الحكومي الذي أنشأه أتاترك، وكان أصحاب هذه المشاريع الصغيرة والمتوسطة التي حققت النجاح من المحافظين والمتدينين -يقارنهم المؤلف بالجمهوريين في وسط أمريكا- وساعد على الوصول إلى لحمة دينية سياسية لم تكن في ما سبق أمرا يمكن تصوره في تركيا.

إن قيادة أركان الجيش التركي، وهي الجهة المسؤولة عن حماية إرث أتاترك، لا تزال تنظر إلى حزب العدالة والتنمية بعين الريبة، وتنتشر في الفضاء السياسي التركي اتهامات لهذا الحزب بأنه ليس إلا عصابة من المتطرفين ترتدي البدلات وتسعى إلى إسقاط الجمهورية

www.iraqfuture.net © كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل

التركية. ويبدو أن مؤلف الكتاب راض عن حالة التنافس في تركيا، حيث يرى أن «التجارة قيدت سلطت الدولة كما خففت حدة التوجهات الإسلامية». لقد تصادف بروز حزب العدالة والتنمية مع بروز طبقة وسطى رأسمالية والابتعاد عن تسلط الدولة على الاقتصاد. كما يرى نصر أن مطالب ناخبي الطبقة الوسطى أجبرت الحزب على أن يصبح قوة تكنوقراطية متسامحة نسبيا في السياسة التركية، وقد ساعد التنافس الانتخابي على صياغة شكل أكثر اعتدالا من الإسلام السياسي.

أبطال الطبقة الوسطى

إذن، ما الذي جرى على النحو الصحيح في تركيا، وعلى النحو الخاطئ في إيران؟ يجيب المؤلف على هذا السؤال بأن البلدين نهضا من رماد عملية تحديث فاشلة طبعت الشرق الأوسط بطابعها في منتصف القرن العشرين، حيث قامت هذه العملية على أسس جهود علمانية تديرها الدولة وأنتجت القليل من الثروة وأقل القليل من الحرية. في عام 1963 تنبأ المختص بشؤون الشرق الأوسط مانفريد هالبيرن (Manfred Halpern) بأن ازدياد قوة الدول المستقلة سيؤدي إلى أن تقوم الطبقة البرجوازية الصغيرة المتنامية المكونة من أساتذة المدارس والضباط والموظفين بتشكيل «طبقة وسطى جديدة» وقوة تسعى إلى التحديث، ولكن نصر يقول أنه نظرا إلى كون هذه المجموعة من منتجات الدولة، فقد حصنت دورها كوسيلة لإقرار مبادئ الحرية المدنية، فسعت بدلا من ذلك إلى ترسيخ الرعاية الحكومية.

بالرغم من ذلك، أحس نطاق عريض في هذه الطبقة بالإحباط نتيجة استمرار الفقر وانعزالهم عن الحكام الذين بدوا أكثر ارتياحا في صالونات أوروبا منهم في عواصم بلدانهم، وكان أن قدم الإسلام مجالا لتنظيم الجهود المعادية للواقع الراهن بالإضافة إلى الأساس النظري لهذه الجهود. ففي إيران تسببت الوطنية العلمانية القمعية التي انتهجها الشاه بولادة حركات معارضة نتجت عنها الجمهورية الإسلامية، وفي مصر وغيرها أدت الوطنية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

العلمانية إلى خلق مجموعات تنتهج سبيل العنف وتوظف الشعارات والرموز الإسلامية في جهودها الرامية إلى إسقاط الحكومات القائمة. وأدت هذه الحركات بدورها إلى خلق انطباع لدى الكثير من مراقبي شؤون المنطقة بأن الحكومات ذات التوجه الأكثر إسلامية ستكون غير متسامحة مع المرأة والأقليات، متشككة حول رغبات الأكثرية، ومعادية للمصالح الغربية.

لا يتفق المؤلف مع هذا الانطباع، محاججا بأن شيوع نمط من الوطنية (أكثر إسلامية) في المنطقة من شأنه أن يتلاءم بشكل أسهل مع الطبقة الوسطى، ويجلب مبادئ الحرية المدنية إلى السياسة، ويؤدي إلى حركة اعتدال جديدة على امتداد الشرق الأوسط. وينتقد نصر فكرة دعم جهود تعزيز المبادئ العلمانية، وذلك لأنها معركة خاسرة حسب رأيه، والسبب في ذلك أن «خط المواجهة الحالي في الكثير من المجتمعات الإسلامية لا يقع بين الإسلام والعلمانية، وإنما بين أشكال الإسلام ذاته». ويحاجج المؤلف أن الدفاع المستمر عن العلمانية الخالصة لا تثمر إلا شعور المسلمين بالتعرض للحصار، وتغذي حربا ثقافية لا يمكن للغرب أن يربحها. ويقترح نصر أن من الأفضل كثيرا اعتماد تعزيز انفتاح اقتصادي أكبر لتقوية الطبقة الوسطى ليتم بعدها الاعتماد على ما لدى هذه الطبقة من نية حسنة لكبح جماح مظاهر أكثر تطرفا في السياسة الإسلامية. وفي النهاية، لم يقم معظم المسلمين في الشرق الأوسط «بتوجيه دعمهم إلى الأحزاب الأصولية في الانتخابات ما لم تتخل هذه الأحزاب، على الأقل، عن المكون الأصولي في أهدافها المعلنة». إن الجيل الجديد من أغنياء المسلمين لا يعرف ما هي الكراهية، ونمط الإسلام الذي يؤمنون به «يمجد التقوى، ويرفض العنف والتطرف».

مخرج من الأزمة

لا يمكن اعتبار أفكار نصر مما يعتقده الجميع. فالكثير من المسيحيين والعلمانيين في الشرق الأوسط قد يجادلون ضدها، وخروجهم من المنطقة علامة على أنهم لا يثقون

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

بالإسلاميين. وثمة مشكلة أخرى في طروحات نصر، وهي أنه لم يضع في البدء خطة لتحقيق انفتاح المنطقة اقتصاديا ودينيا وسياسيا. ولم يقترح مسارا يتبعه هذا التطور. في بعض الأحيان يشعر المرء أن هذا الكتاب تسيره العاطفة أكثر من العقل، حيث يشدد نصر على النموذج التركي لكنه لا يتوقف عند تناقضاته وخصوصياته، ومن ذلك على سبيل المثال: أثر العضوية المتوقعة في الاتحاد الأوروبي على تقييد الجنرالات وتشجيع حزب العدالة والتنمية للسعي نحو سياسات اقتصادية متطرفة؛ كما إن نصر لا يتوقف عند الحقيقة القائلة بأن في بعض الحالات لا تقف الثروة حائلا دون التطرف في المنطقة (رغم أنه أشار إليها)، ففي النهاية، ترعرع أسامة بن لادن في عائلة سعودية وفيرة الغنى، ونائبه المصري أيمن الظواهري نشأ في عائلة من نخب الطبقة الوسطى في القاهرة وتلقى تعليما يؤهله لأن يكون طبيبا؛ وأكثر من ذلك أن بعض الدول مثل تونس قد شهدت رعاية للطبقة الوسطى بالترافق مع كبح الانفتاح السياسي، وفي دبي لا تلعب الانتخابات دورا يذكر في النظام الحكومي.

أما الأمر الذي يثير معظم إشارات الاستفهام فهو غياب السعودية عن كتاب يفترض به أن يتحدث عن الدين والاقتصاد والسياسة في الشرق الأوسط، وهي مجالات استفاض الكتاب في تناولها. فالسعودية هي الصوت الأكثر وضوحا في تعريف الإسلام الأصولي، وهي تدعم طيفا من المجموعات غير الحكومية في المجتمعات الإسلامية على امتداد العالم، ولا توجد دولة تماثلها في الإنفاق على التعليم الديني لشعبها ونشر فهمها الخاص للإسلام خارج حدودها. ويمتلك أفراد العائلة المالكة السعودية ومن يتصل بهم كافة وسائل الإعلام العربية تقريبا. وتدرب الحكومة السعودية الآلاف من رجال الدين وتطبع الملايين من الكتب الدينية كل عام. إن السعودية قوة اقتصادية عظمى أيضا، حيث يبلغ إجمالي ناتجها المحلي ضعفي مثيله في الإمارات، وثلاثة أضعاف مثيله في الكويت، وأربعة أضعاف مثيله في قطر. وإن كان نصر يصف إيران بأنها «الدولة الوحيدة أبدا التي خلقت من تصورات الأصوليين»، فإن السعودية تماثلها في ذلك بالتأكيد، ولذلك آثاره الملموسة.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

قوى الثروة

قد يقال في تجاهل نصر للنموذج السعودي أن الاقتصاد المبني على أموال النفط أدى إلى استئصال الطبقة الوسطى وأدى بالضبط إلى نوع من النظام التسلطي المتمحور حول الدولة، وهو ما يأمل نصر أن يكون مصيره الزوال. ومع ذلك، فإن النفوذ السعودي، سواء أكان ماديا أم معنويا، يكاد يخترق كافة حلقات المجتمعات الإسلامية. وإذا كان مستقبل الإسلام يقع في عالم التجارة، فإن استثناء السعودية من النقاش حول إمكانية ذلك سيكون بمثابة تحريف ديني واقتصادي وسياسي.

ومع ذلك فقد جاء نصر بكتاب مفيد ورائع يلعب دور الدليل الحيوي في متاهة من القضايا التي يندر أن نجد من يناقشها، موظفا خلاصة رحلاته الواسعة إلى الشرق الأوسط بمهارة عظيمة. إن (قوى الثروة) مليء بالحكم والمعلومات، والنكات، والوصف الدقيق للشخصيات، وهو من الكتب سهلة القراءة رغم ما به من معلومات عاصفة.

إن من يقرأ كتاب (قوى الثروة) لا يتعجب من صعود ولي نصر في سلم حلقات الحكومة الأمريكية كمحلل مرموق للظواهر المعقدة التي يتميز بها الشرق الأوسط. ومنذ أن ألف الكتاب تبوأ منصب كبير مستشاري ريتشارد هولبروك الممثل الخاص لوزارة الخارجية الأمريكية في أفغانستان وباكستان، وهذه المسؤولية الجديدة تتضمن معرفة السبيل الأمثل للوصول بهاتين الدولتين إلى قدر أكبر من الاستقرار والاعتدال، وهي عملية تتطلب برأيه عقودا من الجهد المتواصل.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net